خالد بن الوليد
قصة عبقرية عسكرية

أ. عبد القادر بوطيبة

بين إسلام خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي (8هـ-629م) ووفاته رضي الله عنه (21هـ-246م) شارك أوقاد نحو 40 معركة انتصر فيها جميعا، ولا شك ان عبقرية عسكرية بهذا الحجم، وفارسا من هذا الطراز الفريد، تظل تجدب إليها الأنظار واهتمام الدارسين والباحثين باستمرار.

وتعد رسالة الطالب محمد السوعيدي التي وضعها باللغة الفرنسية وناقشها في باريس بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا (فرنسا)[1] رسالة علمية حول هذا القائد العربي المسلم الذي تجعله بطولته النادرة كأحد اكبر القواد العسكريين في العالم، خاصة وأن اهتمام الرسالة الأولى هو محاولة التعريف بخالد بن الوليد "سيف الله المسلول" الوصف الذي شرفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب أول معركة شارك فيها إلى جانب المسلمين كجندي بسيط في أول الأمر.

1. Mohamed assuaydi, Le génie militaire de khaled Ibn alwalid, Mémoire de DEA sous la direction de Hervé Coutou-Begarie Ecole pratique des hautes études, la Sorbonne, Paris.

كان خالد من أشراف قريش، ويتصل نسبه مع نسب رسول الله في الجد الثالث، ووالده كان من أثرياء مكة، يحدد صاحب الرسالة تاريخ ميلاد خالد بسنة 35 قبل الهجرة (586م).

لقد أطنب المؤرخون المسلمون في وصف فروسية خالد وقدراته الحربية، وأكدوا جميعا أن خالد كان يحسن إلى جانب ركوب الخيل، المصارعة أي انه كان رياضيا بمفهوم هذا العصر، أدى إسلامه إلى التمكين للإسلام والمسلمين واستفاد المسلمون كثيرا من عملية القضاء على المرتدين، وفتح العراق والشام.

وقد تتبع الباحث محمد السوعيدي، على مدى فصول هذه الرسالة العلمية حياة خالد بن الوليد، خطوة خطوة، وإن ركز على عبقريته العسكرية باعتبار ذلك محتوى الرسالة وغرضها، وذلك منذ أن بدأت عبقرية خالد العسكرية تخترق المجتمع القريشي كفارس يهابه الرجال قبل أن تخترق الأفاق المحيطة بشبه الجزيرة العربية.

وضح لنا الباحث، بحياة حافلة بالجهاد في سبيل الله، وصورة مكتملة عن هذا البطل الذي قلما يجود الزماق بمثله.

أثبت الباحث من خلال الوقائع، أن خالد بن الوليد كان يفضل الهجوم على الدفاع دائما في حروب كان هو يختار مكانها وزمانها، ولم يشهد التاريخ أن خالد خسر معركة واحدة من المعارك الكثيرة التي خاضها رغم أن عدد جيشه كان دوما اقل من عدد جيوش خصومه أو أعدائه.

لقد كان إسلام خالد الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينتظره، مكسبا للإسلام والمسلمين، ولم تكد تمضي شهور قليلة حتى فتح الرسول

مكة المكرمة، وشارك خالد في ثلاث غزوات مع الرسول ونال لقب "سيف الله المسلول" في أول معركة خاضها مع المسلمين وهي معركة قؤته ضد البيزنطيين وحلفائهم العرب المسيحيين في شهر سبتمبر 629 وهي المعركة التي عادت إليه قيادة الجيش بعد استشهاد القواد الذي عيّنهم رسول الله (زياد، جعفر، عبد الله بن آبي رواحة) وأنقذ جيش المسلمين من هزيمة حقيقية كادت أن تلحق بهم لقوة جيش بيزنطا، وحقق انسحابا ناجحا.

ولكن فيما كانت تتمثل عبقرية خالد العسكرية ؟ وهو السؤال الأساسي الذي دارت حوله الدراسة وتركزت جهود حوله الأستاذ محمد السوعيدي, يقول الباحث : "أن عبقرية خالد العسكرية، كانت تقوم على عدة عناصر أو مبادئ وهي : الثبات على الهدف، مبدأ المفاجأة، أو المباغتة، مبدأ روح الهجوم، تركيز الجهود، مبدأ الخفة وسرعة الحركة.

لقد كان خالد بن الوليد، الذي نال وصف "سيف الله المسلول" عن جدارة واستحقاق، يلجا إلى الباغتة للتعويض عن قلة عدد جنوده بالنسبة إلى كثرة عدد خصومه، ويتجلى هذا العنصر اكثر مما يتجلى في فتح العراق ثم في فتح سورية عندما قطع مهمته في وادي الرافدين وتوجه إلى الشام رأس، بصفة مفاجئة ودون سابق إنذار

ويعتبر صاحب الرسالة، أن روح الهجوم عند خالد كانت حالة طبيعية بل حالة فطرية، بدليل أن معاركه جاءت جميعها هجومية، ولم يحدث طوال حروبه أن اتخذ موقع الدفاع، ظهر ذلك في غزوة أحد ضد المسلمين الذي ظل يرصد الثغرة التي ينفذ منها، ويحقق النصر، أو أثناء فتح العراق وسوريا أو في معارك الردة.

أما بالنسبة لمبدأ تركيز الجهود ويعني به الباحث جمع ما يلزم من أسباب النصر، وخاصة التركيز على نوعية الرجال أكثر من التركيز على عددهم أو عدتهم، وإذا كانت خفة الحركة تقتضي القدرة على الحركة السريعة في نقل ونشر وسحب المقاتلين بسرعة، تحرم العدو من إعادة تنظيم صفوفه والانقضاض على الجندي المنسحب، وهذا بالضبط ما كان خالد يفعله كلما رأى ميزان القوى يميل إلى العدو، ولذا نجده دائما يعطي ظهره للصحراء بيئته الطبيعية، والسر الذي يكمن وراء اختيار مكان المعركة.

وكان خالد بن الوليد صاحب التجربة العسكرية الطويلة والجنرال العربي الإسلامي الأول (بلغة العصر) في التاريخ العربي الإسلامي يخوض الحروب بالأسلوب أو لطريقة التي كان يحسنها، وتضمن له النصر دائما، كما نجده يمزج بين التقاليد العسكرية العربية، وما كان لدى الغير من أساليب قتالية وفنون حربية، تجلى ذلك في لقائه بالجيش البيزنطي في سورية، و لم تحول قوة هذا الجيش و كثرة عدده، من انتصار خالد.

نقل خالد أثناء حروب الردة جيشه من معركة إلى معركة شمالا وجنوبا، شرقا وغربا من الجزيرة العربية إلى أن قضى على أعداء الإسلام واحدا واحدا، ضد طليحة أولا ثم مالك نويرة، وأخيرا مسيلمة الكذاب، كما تعد عملية فتح العراق، نموذجا أخر من حركية خالد الذي خاض 13 معركة في بحر عام واحد عاشه في بلاد وادي الرافدين.

أن أسلوب خالد في إثارة حماس جنده على الجهاد والقتال يثير الإعجاب حقا، فهو الذي كان يتولى بنفسه قيادة الطليعة من جيوشه وكان يقوم بمبارزة القواد من خصومه، حتى يشجع أفراد قواته، وعندما

يكون الانسحاب ضروريا يقود مؤخرة الجند بنفسه كذلك، إلى أن ينجح الانسحاب ويأمن على الجند، واكثر ما كان يستعمله في إثارة الحماس تعيين من يقرأ القرآن أثناء الزحف، وأكثر ما كان يفضل قراءة سورة "الأنفال" التي تعرف بسورة الجهاد كذلك.

هذا باختصار محتوى الرسالة العلمية التي استهدفت التعريف بهذا الجنرال العربي الإسلامي الكبير، صاحب هذه العبقرية العسكرية الفذة التي تجعله في مصاف كبار العسكريين في التاريخ الإنساني.

والفضل كله يعود للباحث في التعريف بهذا البطل صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لدى قراء اللغة الفرنسية، وهي جديرة بأن تطبع وتنشر و لم لا تعرّب، لأنها إضافة جادة إلى تاريخ الإسلام والمسلمين.